وهي تسوى شعرها وترد عن جبينها خصله

« نعم . وقد عرفت الآن »

فقالت « سارة » باخلاص :

« يا حبيبتي هذا أسعد يوم في حياتي . أنا لأخيك . وأنت لأخي »

فقالت « خيرية » وهي تكاد تبكي :

« كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ إنه لم يرني قبل اليوم إلا مرة واحدة ! »

فسألتها « سارة » وهي تنظر اليها نظرة من يُحْيي ذكرى تمعن في الغمض :

« قبل اليوم ؟ أتعنين . . ؟ »

قالت « نعم كنت خارجة من سمعان فعثرت . . »

فصاحت بها سارة وقد صح ظنها :

« هو أنت ؟ »

« أهو أنا ؟ ماذا تعنين ؟ »

أعني أنك فتاته التي يحبها ويبحث عنها . . يا لسعادتي »

فتعلقت بها خيرية وأمطرتها وابلاً من الأسئلة ، وسارة تضحك ولا تعرف كيف تجيب ، وإذا بحمادة ينقر ويسأل قبل أن يسمع الاذن بالدخول

« سارة ! ما هذا الذي يقوله عبده ؟ »

فوثبت الفتاتان ووقفتا مبهوتتين من المفاجأة ، واحتاج حمادة أن يعيد سؤاله

« أهو صحيح ؟ »

فقالت « سارة » وهي تبتسم له وترف : « ماذا يا روحي ؟ »

فأذابته ابتسامتها وراح يتلعثم

... أ ... أ ...

فقالت سارة « تعال يا حبيبي ... أم نخرج ؟ ؟ أظنه آن لي أن أخرج . بكرهي يا روحي ... فتعال احملني الى سيارتك ... وفيها ... الى بيتي »

فنسي حمادة ما أفضى به اليه عبده ...

ابراهيم عبد القادر المازني

من الأدب الأندلسي :

٢ ـ التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

دخل ابن شهيد وادي الجن ، ورغب في البدء بلقاء الشعراء على ما بيّنا في المقال السابق ، وقد حدّثنا الرجل أنه طلب من صاحبه زهير بن نمير أن يقدمه أول ما يقدمه إلى تابع امرىء القيس ، وإنما حق له هذا ، أولاً : لأن امرىء القيس سابق في عمر الزمن ، وحساب الأيام ؛ وثانياً : لأن النقاد جميعاً على أنه أمير الشعراء في العصر القديم ، وشيخهم الذي أوضح لهم الطريق ، فهو مقدم بالطبع والوضع كما يقول المناطقة ، ولم يرد ابن شهيد أن يخرج على ماقضت به الأيام ، وما تواضع عليه النقاد ، فأنزل الرجل منزلته المقررة ، ووضعه في مكانته المعلومة ، ولذا قدمه على نفسه في الأنشاد ، ووصفه بتطامح الطرف ، واهتزاز العطف ، علامة الغرور والثقة ، وأخذته الهيبة منه ، فهم بالحيصة والهرب من أجازته ، لولا أن شدّ في قوى نفسه ، وأنشده ما أنشد .

وعلى هذا النهج راح ابن شهيد يتحدث عن توابع الشعراء واحداً بعد واحد ، ويقرر ما وقع له معهم ، وما جرى بينه وبينهم من الأنشاد والمساجلة ، وهو في أثناء ذلك يعرض بالتصوير لأحوال الشعراء ، ويهتم بوصف نفسياتهم وميولهم ويشير إلى ما اشتهر عنهم في أخلاقهم وسلوكهم وآرائهم ، تارة بالتلميح ، وطوراً بالتصريح ، ومن حين لآخر تجده يجمل كلامه بالنادرة المستملحة ، فيجعل القارىء يقبل عليه في سرور وائتناس ، استمع اليه وهو يحكي ما وقع له مع « بغلة » من التوابع أقبلت تحكمه في شعرين لبغل وحمار اختلف فيهما الفريقان ، فقال لها حتى أسمع ، فقالت الشعر الأول لبغل من بغالنا وهو :

على كل صب من هواه دليل
سقام على جد الهوى وتحول
وما زال هذا الحب داء مبرحا
إذا ما اعترى بغلاً فليس يزول

بنفسى التى أما يلاحظ طرفها
فسحر ، وأما خـــدها فأسيل !!

تعبت بما حملت من ثقل حبها
وإنى لبغل للثقـــال حمول !

وما نلت منها نائلاً غـــير أنها
إذا هى بالت بلت حيث تبول

والآخر لدكين الحمار وهو :

دهيت بهذا الحب منذ هويت
وراثت ارادائى فلست أريث

كلفت بالتى منـذ عشرين حجة
يجول هواها فى الحشا ويعيث

وغـــيرّ منها قلبها لى نميمةٌ
نماها أخم الخصيتين خبيث

وما نلت منها محرماً غـــير أنها
إذا هى راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : « فاستضحك زهير وتماسكت ، وقلت للمنشدة ما هويت ؟ قالت : هويت بلغة الحـير ؛ قلت والله ان للروث لرائحة كريهة ، ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم فى الشعرين ، فقالت فهمت عنك » ثم يتفكه ابن شهيد فى القول أكثر فيقول « وقالت لى البغلة : أما تعرفنى أبا عامر ؟ قلت لو كان ثم علامة ، فأماطت لثامها فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدها فتباكينا طويلا ! وقد أخذنا فى ذكر أيامنا فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت ما ترين ! قالت : شب عمرو عن الطوق ! وما فعل الأحبة ؟ قلت شب الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الأخلاق ومن إخواننا من بلغ الأمارة ، وانتهى الى الوزارة ؛ فتنفست الصعداء ، وقالت ؛ سقاهم الله سبل العهد ، وان حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود ... »

فالرجل كما ترى فكه ظريف ، وفى رسالته كثير من الفكاهات والنوادر ، وكلها على غرار هذه الفكاهة ملاحة وخفة وطرافة ، وإنما براعة الرجل تظهر أكثر فى تصوره — كما قلنا — لأحوال الشعراء والكتاب ، ووصف ميولهم ، والتحدث عما جرى له معهم ، ولعل من أعذب ماله فى ذلك ، وصفه لما جرى بينه وبين صاحب أبى نواس ، ذلك الشاعر الذى قطع العمر فى نشوة السكر ، وشرك الخمر ، واستطراده فى الحديث عن « دير حنة » مقام هذا الشاعر وما اشتمل عليه من الرهبان والغزلان !! فقد أجاد الرجل فى ذلك وأبدع ؛ أنظر اليه وهو يصور ذلك فيقول « ثم قال لى زهير فمن تريد . قلت صاحب أبى نواس قال هو «بدير حنة » قد غلب عليه الخمر ، فركضنا ساعة ، وجزنا فى ممرنا بقصر ، فقلت لمن هذا القصر يازهـير ؟ قال لطوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحترى ، فهل لك أن تراه ؟ قلت : أجل ، إنه من أساتيذى وقد كنت أنسيته ، فصاح يا أبا الطبع ، فخرج لنا فتى على فرس أشهب وبيده قناة ، فقال له زهير : إنك موفق ، قال لا ، صاحبك أشيخ مارنا من ذلك لولا تنقصه ! ؛ قلت يا أبا الطبع إن الرجال لاتكال بالقفزان ، وأنشدنا من شعرك فأنشد :

ما على الركب من وقوف الركاب[1] »

حتى انتهى منها ، ثم قال هات أنت شيئاً فأنشدته :

« هذه دار زينب والرباب »

حتى أتيت فيها الى قولى :

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون فى جوف غاب
وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

فكأنما غشى وجه أبى الطبع قطعة من الليل ، وكر راجعاً الى الوراء دون أن يسلم ، فصاح به زهير أأجزته ؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر !!

قال ابن شهيد « .ثم سرنا حتى انتهينا الى « دير حنة » فضرب زهير الأدهم ، فسار بنا فى قنته ، فقتق سمعى قرع النواقيس فقلت فصحت عن منزل أبى نواس ورب الكعبة ، وسرنا نجتاب أديارا وكنائس وحانات الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتضوع نوافحه ، فوقف زهير ببابه وصاح به : سلام على أهل « دير حنة » فأرقلت نحونا الرهبان مشدودة الزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، مبيضة الحواجب واللحى ! مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ، فقالوا أهلا بك يازهير من زائر ، وصاحب أبى عامر ، ما بغيتك ؟ قال « حسن الدنان » ، قالوا : إنه لفى شرك الخمر منذ أيام عشرة ، وما نراكما منتفعين به ، فقال وعلىّ أنا ذلك ، ونزلنا وقادنى الى بيت قد اصطفت دنانه ، وعلقت غزلانه ، وفى دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة ، قد افترش أضغاث الزهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهارة وحواليه

(١) مطلع قصيدة للبحترى يمدح فيها اسماعيل بن شهاب ونصفها فى الغزل والتشبيب والنصف الآخر فى الدمع .

صبية كالظباء ، فصاح به زهير: حباك الله أبا الأحسان ، فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه ، فقال لى زهير : اقرع أذنيه باحدى خمرياتك ، فانه ربما تنبه لبعض ذلك ، فصحت أنشد :

ولربّ حان قد شممت بديره
خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم
متصاغرين تخشعاً لكبيره ! !
والقس مما شاء طول مقامنا
يدعو بعود حولنا بزبوره
وترنم الناقوس عند صلاتهم
ففتحت من عينى لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته . أأشجى ؟ قلت : أنا ذاك ، فاستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجهه فأفاق ، واعتذر الىّ من حاله ، فأدركتنى مهابته ، وأخذت فى إجلاله لمكانه من العلم والشعر . . »

فهذه صورة دقيقة ، تشتمل على حال أبى نواس كأنك تراه ، وتمثل أمامك « دير حنة » بنزلائه ورهبانه تمثيلا رائعاً كله براعة وقوة ، والواقع أن ابن شهيد لم يستمد هذه الصورة من خياله ، ولكنه صورها من الواقع ، ونقلها كما رأى وأبصر ، فقد كان هذا الرجل ولوعاً بالتردد على كنائس النصارى فى قرطبة لايتحرج من المبيت فيها مع الرهبان ، يرشف الكأس ، ويبهج النفس ، ومن ذلك « أنه بات ليلة بأحدى كنائس قرطبة ، وقد فرشت بأفخاث آس ، وعرشت بسرور وائتناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه ، ، وبرق الحميا يسرج لمعه ، والقسّ قد برز فى عبدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح :

لا يعمدون الى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشف حميا ، كأنما يرشف من شفة لميا ، وهى تنفح له بأطيب عرف ، كلما رشف أعذب رشف ، ثم ارتجل[1] فى وصف ذلك هذه الخمرية ، التى قرع ببعضها سمع أبى نواس ، فتنبه من حبائل نشوته ، وصحا من سكرته ! !

وابن شهيد يذكر أنه تقابل فى طريقه بصاحب البحترى بعد أن قد أنسيه مع أنه من أساتيذه . ويذكر أنه أجازه فخذله حتى لقد هرب بخزى «وكر راجعاً الى الوراء دون أن يسلم» وهذه شنشنة ابن شهيد مع كثير من الشعراء والكتاب ، خصوصاً شعراء المشارقة وكتابهم ، فهو يحدّث أنه التقى « بزبدة الحقب » تابع بديع الزمان ، وبعد أن تمّ التعارف بينهما ، طلب منه ابن شهيد أن يجرى على سمعه وصفه للماء ، فتطاول زبدة بذلك الوصف ، وقال إنه من العقم بحيث لا يبلغه أديب ، ثم انطلق يقول ، « أزرق كعين السنور ، صاف كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فكان كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة » فعارضه ابن شهيد فقال « انظر ياسيدى كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر لياح ، ينصب من إنائه ، انصباب الكوكب الدرىّ من سمائه ، كأنه خيط من غزل فلق ، أو مخصرة ضربت من ورق ، يرفع عنك فتردى ، ويصدع به قلبك فتحيا » فلما سمع ذلك زبدة غار فى الأرض ، وهو مبهوت خجل ! !

وقد حسب الدكتور زكى مبارك ذلك غروراً من ابن شهيد وعذره فى هذا الغرور نظراً لنبوغه وعبقريته ، والواقع أن الغرور صفة تكاد تكون ملازمة لكل أديب ، وقد يكون ابن شهيد مغروراً فى نفسه الى أبعد حد ، ولكن كلفه بالتفوق على الشعراء والكتاب لم يكن مبعثه الغرور ، كما حسب الدكتور مبارك ، فان الرجل كما قلنا كتب رسالته فى جماعة من معاصريه ، حطوا من قدره حسداً له ، وغمطوه فضله حقداً عليه ، فأراد أن يطلعهم على مكانته فى الأدب ، وأن يبين لهم قدرته فى الشعر والنثر ، ولذلك فهو يحرص على الظهور أمامهم بالتفوق والتغلب ، ليس فى اجازة الشعراء والكتاب فحسب ! بل إنه ليذكر أن التوابع والزوابع احتاروا فى أمره ، وشدهوا لقدرته فى الشعر والنثر والخطابة ، وأن أحدهم فتن ببيت من شعره فقام ينشده ويرقص ، وأنه قرأ عليهم رسالته فى وصف الحلواء فأعجبوا بها أيما إعجاب ، وقالوا «إن لسجعك موضعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد أعرته من حلاوة طبعك ، وحلاوة لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك» وأظن فى الجملة الأخيرة ما يكفى للفصل بيننا وبين الدكتور زكى مبارك .

على أن ابن شهيد لم يقف عند هذا الحد من التعالى وإظهار التفوق أمام معاصريه ، بل راح يحط من قدرهم ، ويتهكم بعلمهم وأدبهم فوصفهم ببلادة الطبع ، فهم — كما يقول — ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران ، الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة لا منفذ لها فى الرقة ، ولا مدبّ فى شعاع البيان ، كل بضاعتهم من الأدب ، كلمات من غريب اللغة ، وبعض مسائل من النحو

(١) مطمح الأنفس